

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً
كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ هِجْرَانَ الْكَافِرِينَ لِلْقُرْآنِ، وَعَدَاوَتَهُمْ لِلنَّبِيِّينَ، أَعَقَبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ مَعَاذِيرِهِمْ وَتَعْلَلَاتِهِمْ الْفَاسِدَةِ، إِذْ طَعَنُوا فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ نَزَلَ مُنْجَمًا، وَقَالُوا: (لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَنَزَلَ كِتَابًا جُمْلَةً وَاحِدَةً)⁽¹⁾، وَهُوَ اعْتِرَاضٌ آخَرٌ مِنْ اعْتِرَاضَاتِهِمْ الْبَاطِلَةِ، نَسَقَهُ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا لِيُجَابَ عَنْهُ، وَيُبَيَّنَ خَطْوَهُمْ فِيهِ، كَمَا فَعَلَ بِمَا تَقَدَّمَهُ⁽²⁾.

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿جُمْلَةً﴾: (جَمَلَ) أَصْلُ الْكَلِمَةِ يَدُلُّ عَلَى تَجْمُعٍ⁽³⁾، وَالْجُمْلَةُ: جَمَاعَةُ الشَّيْءِ، وَأَجْمَلَ الشَّيْءَ: جَمَعَهُ عَنْ تَفْرِيقَةٍ؛ وَأَجْمَلَ لَهُ الْحِسَابَ وَالْكَلَامَ كَذَلِكَ⁽⁴⁾، وَالْمُرَادُ بِالْجُمْلَةِ فِي الْآيَةِ: دَفْعَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ وَلَا تَجْعِيمٍ⁽⁵⁾.

(2) ﴿لِنُثَبِّتَ﴾: (ثَبَّتَ) كَلِمَةً وَاحِدَةً، تَدُلُّ عَلَى دَوَامِ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ: ثَبَّتَ الْجَنَانُ: مَاضٍ فِي الْأَمْرِ وَالْحَرْبِ، وَاثْبَتَ حُجَّتَهُ: أَقَامَهَا، وَثَبَّتَ الْقَوْلَ وَالْأَمْرَ: وَضَحَ، وَرَجُلٌ ثَبَّتَ، أَيُّ: حُجَّةٌ، وَالثَّابِتُ: اللَّازِمُ الْوَاقِفُ⁽⁶⁾، وَحَقِيقَةُ الثَّبَاتِ فِي الْآيَةِ: اسْتِقْرَارُ الشَّيْءِ فِي مَكَانِهِ غَيْرَ مُتَزَلِّزٍ، وَيُسْتَعَارُ لِلْيَقِينِ وَلِلْأَطْمَئِنَانِ بِحَصُولِ الْخَيْرِ لِصَاحِبِهِ⁽⁷⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18 / 19.

(2) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 177.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمل).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (جمل).

(5) السمين الحلي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (جمل)، والراغب، تفسير الراغب: 11 / 19.

(6) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ثبت).

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19 / 19.

طلب إنزال
القرآن جملة
واحدة اعتراض
من اعتراضاتهم
الباطلة، ودليل
على هجرانهم
للقرآن

(3) ﴿فَوَادِكُ﴾: الفؤاد: القلب؛ لِيَتَفَوَّدَهُ وَتَوَفُّدَهُ، مُذَكَّرٌ لَا غَيْرُ، والفؤادُ أيضًا: العقلُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِغًا﴾ [القصص: 10]، والجمعُ أَفئدةٌ، وَرَجُلٌ مَفْؤُودٌ وَفَيْدٌ: لَا فُؤَادَ لَهُ؛ وَلَا فِعْلٌ لَهُ⁽¹⁾، والمقصودُ بالفؤاد في الآية: العقلُ، وَتَشْبِيهُهُ بِذَلِكَ الْإِنْزَالِ: جَعَلَهُ ثَابِتًا فِي أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، لَا يَضْطَرِبُ فِيهِ⁽²⁾.

(4) ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾: (رتل) التَّرتِيلُ فِي الْقِرَاءَةِ: التَّرْسُلُ فِيهَا وَالتَّبْيِينُ مِنْ غَيْرِ بَغْيٍ⁽³⁾، وَأَمَّا التَّرتِيلُ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ التَّرْسُلُ فِيهِ، وَالْمُرَادُ بِالتَّرتِيلِ فِي آيَةِ يَجُوزُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ حَالَةً لِنُزُولِ الْقُرْآنِ، أَيْ: فَرَقْتَاهُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَمْرًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِقِرَاءَتِهِ مُرَتَّلًا، أَيْ: بِتَمَهُّلٍ، بَأَنْ لَا يُعَجَّلَ فِي قِرَاءَتِهِ، وَذَلِكَ بِأَنْ تُبَيِّنَ جَمِيعَ الْحُرُوفِ وَالْحَرَكَاتِ بِمَهْلٍ⁽⁴⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِي:

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنِ تَعَنُّتِ الْكَافِرِينَ، وَيَذَكِّرُ اعْتِرَاضًا آخَرَ مِنْ اعْتِرَاضَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ، سَوَاءً أَكَانَ ذَلِكَ الْمُعْتَرِضُ مِنْ كُفَّارِ قَرِيشٍ - كَمَا وَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ - أَمْ كَانَ طَائِفَةً مِنَ الْيَهُودِ، فَقَدْ قَالُوا حِينَ نَزَلَ الْقُرْآنَ مُفْرَقًا: (هَلَا نَزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُحَمَّدٍ الْقُرْآنَ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَلَمْ يُنَزَّلْ مُفْرَقًا؟) فَأَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ سَبَبِ نَزُولِهِ مُفْرَقًا: أَنْزَلْنَاهُ كَذَلِكَ لِنُقَوِّيَ قَلْبَكَ بِهِ بِإِعَادَتِهِ وَحِفْظِهِ، وَتَزْدَادَ يَقِينًا وَطُمَأْنِينَةً وَثَبَاتًا، وَأَنْزَلْنَاهُ مُفْرَقًا عَلَى تُوْدَةٍ وَتَمَهُّلٍ، شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، آيَاتٍ ثُمَّ آيَاتٍ، وَبَيِّنَاتٍ تَبَيِّنَاتٍ⁽⁵⁾.

مِنْ مَحَاسِنِ
هَذِهِ الشَّرِيعَةِ
الْمُطَهَّرَةِ أَنَّهَا
نَزَلَتْ بِالتَّدْرِيجِ
النَّاسِبِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فؤد).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 99 / 27.

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رتل).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20 / 19.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 445 / 17، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 109 / 6، والراغب، تفسير

الراغب: 12 / 19.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

معنى الواو في صدر الآية:

عطف على ما
مضى من أقوال
الكافرين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عاطفة، فوصلت هذه الجملة من أقوال الكافرين بما كان من أقوالهم من مثله فيما مضى⁽¹⁾، من لدن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وأشركتها في سلسلة أقوالهم وأطروحاتهم الواهية.

الغرض من التعبير بالاسم الموصول وصلته:

كفرهم يُملي
عليهم مقالة
السوء

عبر النظم الجليل بالاسم الموصول وصلته ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، وهو إظهار في موضع الإضمار، فيه تنبيه على أن وصف الكفر سبب حملهم على مقالة السوء هذه⁽²⁾؛ فهي كلمة نابعة من كفرهم، وجحودهم للحق، فلو كانوا حقاً من المؤمنين المخلصين، لما اعترضوا على حكمة الله تعالى في إنزال القرآن منجماً، والفائدة من التعبير بصفة الكفر في جملة الصلة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لذمهم والإشعار بعلّة الحكم⁽³⁾؛ فإنهم ما طلبوا إنزال القرآن جملة واحدة إلا لكفرهم الواضح، وجحودهم المُعلن؛ لأنهم لم يؤمنوا بعظمة الله تعالى وقدرته على إنزال القرآن الكريم كيفما يشاء.

بلاغة العدول عن وصف الإجرام إلى الكفر:

كفرهم غطى
عقولهم فأنكروا
القرآن وإعجازه
عداوة وحسداً

لما كان الكفر معناه السُّتْر والتَّغطية في اللغة، والكافر من غطى نعم الله وتوحيده⁽⁴⁾؛ أوثر التعبير بصفة الكفر لا الإجرام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لأنهم كانوا في مقام حجب للحق،

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 255.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13 / 378.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6 / 215.

(4) ابن الأنباري، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1 / 118، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

وَنُكَرَانٍ لِلْإِعْجَازِ، فَكَفَرُوهُمْ دَفْعُهُمْ إِلَى تَغْطِيَةِ مَا تَشْهَدُ عَقُولُهُمْ بِصَحَّتِهِ، مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَلَامٌ مُعْجَزٌ بِكَوْنِهِ مَنْزَلًا مُفَرَّقًا، فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ مَجْتَمِعًا، كَمَا حَجَبُوا مَا وَضَحَ لَهُمْ مِنْ آثَارِهِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَشْهَدُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَصِفَاتِهِ الْعَلِيَّةِ، وَكُلَّ ذَلِكَ كَانَ عِدَاوَةً وَحَسَدًا⁽¹⁾.

معنى ﴿لَوْلَا﴾ ودلالاتها:

الأصل في ﴿لَوْلَا﴾ مع الأفعال أن تكون دالة على التّحضيض مع الفعل المضارع، وعلى اللّوم والتّوبيخ مع الفعل الماضي⁽²⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، فاللّوم متعيّن هنا لعدم حصول المراد، وحصول ضده، والمقصود هنا: لوم الكافرين على نزول القرآن الكريم مُفَرَّقًا، وأنّه لو كان من عند الله تعالى لنزل جملة واحدة⁽³⁾، وهو جهل منهم، وسوء ظنّ، وَغِبَاوَةٌ مُعْتَقَدَةٌ.

لوم الكافرين
على نزول القرآن
مُفَرَّقًا جهل
وسوء معتقد

دلالة التعبير بالفعل مضعفاً ﴿نُزِّلَ﴾:

جاء التعبير بالفعل مضعفاً حكايةً عنهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾، وهو تعبير بصيغة التّفعل المشيرة إلى التّدرّج والتّقضي شيئاً فشيئاً؛ لأنّ هذا التعبير أبلغ فيما يرومون من استجلاب السّامع في أن يُقبل على كلامهم، مقارنةً لمرادهم⁽⁴⁾؛ لإيهام السّامع بأنّ القرآن الكريم لم ينزل دفعةً واحدةً، بل نزل على فترات متفرّقة، ممّا يثير الشّكوك في حكمة الله تعالى وإعجاز القرآن، والفعل إذا جاء مُضَعَّفًا زنة (فعل) كان من معانيه الشّائعة الكثرة والمبالغة⁽⁵⁾، وورود الفعل ﴿نُزِّلَ﴾ هنا على هذه الصّيغة دالٌّ على قوّة الفعل؛ فإنّ

تلاعب بالألفاظ
لاستجلاب
السّامع وإقناعه

(1) البقاعي، نظم الدّر: 378 / 13.

(2) الأزهري، موصل الطلاب، ص: 115.

(3) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 254.

(4) البقاعي، نظم الدّر: 378 / 13، 379.

(5) الرّضي، شرح الشّافية: 92 / 1.

إنزال القرآن جملةً واحدة أقوى من إنزال كل نجم منفصلاً⁽¹⁾، ويجوز أن يكون ﴿نُزِّلَ﴾ مضعفاً مساوياً لـ (أُنْزِلَ)؛ لأنهما في التعدية سواء⁽²⁾، مثلما هو الحال في (خَبَرَ) و(أَخْبَرَ) من غير اعتبار دلالة التضعيف على التدرج؛ كي لا يتناقض ولا يتدافع مع قوله تعالى: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾⁽³⁾؛ لأنَّ التفریق ينافي الجمليّة، ويمكن اعتبار استعمال ﴿نُزِّلَ﴾ بدلاً من (أُنْزِلَ) مناسباً لعدة أسباب، منها: إفادة تدرج إنزال القرآن الكريم، ووقوع النزول حالاً بعد حال، وموافقته مع سياق قولهم: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، وتعرضهم بالتهمة التي يُتهم بها القرآن عندهم، بأنّه ﴿نُزِّلَ﴾ لا (أُنْزِلَ)، وحكاية الصورة التي نزل عليها القرآن، ثم إنكارها بقولهم: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾⁽⁴⁾.

فائدة تعدية الإنزال بـ (على):

استعادة
القرآن الكريم،
وملابسته
للرسول

تعدية فعل الإنزال بـ (على) في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾، تدلُّ على الاستعلاء والتمكُّن للمُنَزَّل، وهو القرآن الكريم، على المنزَّل عليه، وهو الرسول ﷺ، فكأنَّ الكتابَ الحكيم قد أصبح ملابساً له، بخلاف (إلى) فإنَّها تدلُّ على الانتهاء والوصول⁽⁵⁾.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيْهِ﴾ على نائب الفاعل ﴿الْقُرْآنُ﴾:
قُدِّمَ شبه الجملة على النَّائب عن الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾؛ اهتماماً بالمنزَّل عليه، وهو النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، ولمَّا كان القول بالاهتمام ليس كافياً؛ فإنَّ هذا الاهتمام مُفَضَّ إلى الاختصاص والحصَر؛ وهو اختصاصه ﷺ بإنزال القرآن الكريم عليه.

اختصاص
الرسول بإنزال
القرآن عليه

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 254.

(2) ذكر ابن هشام سبعة أشياء لتعدية الفعل أولها الهمزة، وخامسها: تضعيف العين، يُنظر: مغني اللبيب، ص: 678، وما بعدها.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البياضوي: 85/14.

(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 17/10.

(5) أبو حيان، البحر المحیط: 168/1.

معنى (أل) ودلالاتها في ﴿الْقُرْآنُ﴾:

(أل) في لفظ ﴿الْقُرْآنُ﴾ دالةٌ على الجنس؛ لأنهم أشاروا إلى هذا اللفظ كونه يقتضي الجمعَ من جهة اللفظ؛ لأنَّ الأصل فيه الجمعُ والاجتماع، والقرآن سُمِّيَ كذلك لجمعه الأحكام والقَصَص⁽¹⁾؛ ولأنَّهم "لا يكادون يسمحون بتسمية القرآن تنزيلاً، فضلاً عن أن يُسندوا إنزاله إلى الله ﷻ"⁽²⁾، فما دام القرآن دالاً على الجمع، طلبوا أن يكون إنزاله جملةً واحدة، وهو ظنٌّ فاسدٌ، ورأيٌ عقيم.

سرُّ تقييد الفعل بقوله: ﴿جُمْلَةً﴾:

التعبير بكلمة ﴿جُمْلَةً﴾ أفاد معنى تأليف الأجزاء المتفرقة⁽³⁾، وجعلها كياناً واحداً، ومطلبُ الكافرين الواردة في عبارة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ دالٌّ على جهلهم وكفرهم، وتماديهم في غيهم، فهم إنَّما طلبوا إنزال القرآن جملةً واحدةً مُتَشَبِّهِينَ في ذلك باليهود والنصارى، بزعمهم أنَّ التَّوراة والإنجيل والزبور إنَّما أنزلت جملةً واحدة، فهلاً نزل القرآن مثلاً؟ فقد استدلُّوا بنزوله منجماً على أنَّه ليس من عند الله؛ استدلالاً منهم بأنَّ من سنَّته سبحانه إنزال الكتب من عنده جملةً واحدة كالكتب السماوية السَّالفة⁽⁴⁾، وهو طلبٌ يُظهر جهلهم بحكمة الله تعالى⁽⁵⁾.

سرُّ التقييد بالصفة ﴿وَاحِدَةً﴾:

التعبير بلفظ ﴿وَاحِدَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾؛ لإفادة التوكيد، أي: من أوَّله إلى آخره مرَّةً واحدةً،

دلالةً لفظ
القرآن على
الجمع لا يقتضي
إنزاله جملةً
واحدةً

طلبوا قرآناً
متألف الأجزاء
ذا كيان واحد
علامةً على
كفرهم

حجةً من
الكافرين لتأكيد
توهمهم أنَّ
الرَّسول هو من
يُرتَّب القرآن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13 / 378.

(3) الجرجاني، شرح الدرر في تفسير الآي والسور: 3 / 1312.

(4) النجواني، الفواتح الإلهية: 2 / 27.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24 / 457.

وهي محاولة لتأكيد توهمهم أنّ النبي ﷺ هو الذي يُرتب القرآن بنفسه، وأنه ليس من عند الله تعالى⁽¹⁾.

بلاغة التشابه اللفظي:

هناك تشابه لفظي بين قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ۝١٦﴾ [الإسراء: 106]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، ففي الآيتين إشارة إلى إنزال القرآن مفرقًا، إلا أنّ الاختلاف هو في بيان حكمة ذلك، فإنّ تفريقه في الآية الأولى لعلّ قراءته على مكث ومهل وبُطء؛ لثَبَّتِ الفاظه ومعانيه في نفوس السامعين⁽²⁾، أمّا في الآية الثانية فذكر علة تفريقه للردّ على من اعترض على ذلك التّفريق، وتلك الحِكمة "هي إيناسُ النبي ﷺ، وثبّيت قلبه على الدّعوة، باستمرار الوحي نازلًا بالقرآن لا ينقطع"⁽³⁾.

بلاغة التشبيه في ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ﴾:

التّعبير بـ ﴿كَذَلِكَ﴾ المشتملة على كاف التشبيه واسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ لتوكيد المعنى وتحقيقه⁽⁴⁾، فيكون المعنى في هذه الآية جوابًا محققًا لإنكارهم، أي: نعم "أنزلناه كذلك متفرقًا؛ لأنّ معنى ما قالوا: لم نُزّل عليه متفرقًا؟ فقل: إنّما أنزلناه كذلك لِنُثَبِّتَ به فُؤَادَكَ"⁽⁵⁾.

الغرض من التّعبير باسم الإشارة البعيد (ذلك):

التّعبيرُ باسم الإشارة للبعد ﴿كَذَلِكَ﴾ فيه إيماءٌ إلى عظمة الحقّ ﷻ، على تقدير تعظيم شأن التنزيل مفرقًا كأنّه قيل لهم:

حكمة تنزيل
القرآن الكريم
مفرقًا بين
التمهل في
قراءته وثنبيت
فؤاد النبي ﷺ

جواب مُحقق
لسؤال المُشكّكين
في إنزال القرآن
مُفرقًا

إشارة إلى عظمة
الحقّ ﷻ
وإعجاز كتابه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 378 / 13.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 231 / 15.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5276 / 10.

(4) أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 163 - 166.

(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 320 / 3.

(ولماذا ينزل جملة واحدة، وها هو التفريق يشتمل على فوائد جمّة جليلة⁽¹⁾ تظهر عظمة قُدرة الله تعالى، وإحكام حكّمته ﷻ).

الموقع البياني لجملة ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ﴾:

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ جملة مستأنفة؛ لأنّ ما سبق من كلامهم، والقول هنا منسوب إلى الحق سبحانه⁽²⁾، فهو ردٌّ على طعنهم، وجوابٌ عن قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، والمعنى: (أنزلناه ذلك الإنزال المنجّم الذي جهلوا حكّمته)، وما أرادوه من طلبهم أن ينزل القرآن جملة واحدة، وأنكروا حكّمته تعالى في تنزيله مُفَرَّقًا⁽³⁾.

معنى اللّام في ﴿لِنُثَبِّتَ﴾:

اللام في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ دالة على التعليل⁽⁴⁾، والمعنى: فرقنا القرآن على أوقاتٍ تعليلًا، فاللام هنا لامُ العلة⁽⁵⁾، أي: لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ، وجعله صابرًا على ما يواجهه من أذى ومكاييد من قومه.

دلالة التعبير بالتثبيت مادّةً وصيغَةً:

الفعل في قوله: ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ صيغة التفعّل فيه دالة على التّكثير والمبالغة⁽⁶⁾، والتّثبيت: أن تجعل الشيء ثابتًا مُستقرًّا، ومنه الثّباتُ بمعنى أن يستقرّ الشيء في مكانه من غير حركةٍ أو زوال⁽⁷⁾، فكذلك الوصفُ في أنّه تعالى يُنزل القرآن الكريم على مراحلٍ متفرّقة؛ لتقوية قلب النبي ﷺ؛ مبالغةً في تثبيت قلبه ﷻ، واستقراره بما لا مثيل له.

ردٌّ على طعنهم،
وجوابٌ على
اعتراضهم،
وإثباتٌ لحكمة
الله تعالى في
ذلك

التّنزيل المتدرّج
للقرآن رحمةً
من الله، وتثبيتٌ
لقلب رسول الله

مبالغةً في تثبيت
قلب النبي
واستقراره

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13 / 379.

(2) الفراء، معاني القرآن: 2 / 268.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19 / 19.

(4) ابن مالك، شرح التسهيل: 3 / 149.

(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8 / 104.

(6) الزّبيّ، شرح السّافية: 1 / 92.

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19 / 19.

سِرُّ إِضَافَةِ التَّثْبِيتِ إِلَى ضَمِيرِ الْعَظْمَةِ:

تنويه بشأن هذا
النبي، واهتمام
بفعل التثبيت

الضَّمِيرُ في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ راجعٌ إلى الحقِّ ﷻ، أي: نحن نثبِّت، وهو دالٌّ على التَّعْظِيمِ، وفي هذه الإضافة تنويهٌ بشأن هذا النبي ﷺ، واهتمامٌ بفعل التثبيت، فإذا ما عَلِمَ أَنَّ الفاعل هو الله تعالى، حصلَ يقينٌ بحصول تثبيتٍ عظيمٍ لفؤاده ﷻ.

بلادة التعبير بالاستعارة في تثبيت الفؤاد:

اطمئنان القلب
ويقينه كشيء
ثابت في مكانه

في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ استعارةٌ بديعة، تُشَبِّهُ اطمئنانَ القلبِ ويقينَه بحصول الخير لصاحبه بثبات الشيء في مكانه، فهو تشبيهُ المعقول بالمحسوس⁽¹⁾، فكما أَنَّ الشيء الذي لا يكون ثابتاً في مكانه يكون مضطرباً، كذلك فإنَّ النفس التي لا تكون ثابتةً على اليقين، تكون مضطربةً قلقةً.

دلالة التعبير بالمضارع في فعل التثبيت:

تثبيت متجدد
لقلب النبي في
رحلة الدعوة

عبّر النظمُ الجليل بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ للدلالة على الاستمرار والتجدد؛ فإنَّ الرسول ﷺ سيتعرَّضُ لكثير من عَنَتِ الكفار واستهزائهم، وسيكونُ في مواقفٍ محرَّجةٍ من التعذيب والتكيل والسخرية، فهو في كلِّ ذلك أحوجُّ ما يكون للتثبيت والتسليَّة المتجددين⁽²⁾.

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِهِ﴾:

نزول القرآن
منجماً لتثبيت
فؤاد النبي ﷺ

الباء في ﴿بِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ دالةٌ على الإلصاق للدلالة على الامتزاج بالقرآن أو السببية المسوقة للتعليل؛ فالحقُّ ﷻ قد أنزل القرآن الكريم على تلك الصفة من كونه مرتلاً منجماً؛ ليثبت فؤاد النبي ﷺ، "أي: نقويه به على القيام بأعباء الرسالة، والنهوض لنشر الحق بين قادة الجاهلية"⁽³⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19 / 19.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 14 / 8797.

(3) القاسمي، محاسن التأويل: 7 / 427.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿بِهِ﴾:

قَدَّمَ الجَارُّ والمَجْرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ﴾ **فُؤَادَكَ**^ط؛ للدلالة على الأهميَّة والاهتمام بتثبيت فؤادِ النَّبِيِّ ﷺ، فكأنَّ الحقَّ سبحانه يُؤكِّد على أنَّ تثبيت فؤادِ النَّبِيِّ هو الغاية الكبرى من نزول القرآن الكريم مُفَرَّقًا.

فائدة التعبير بالفؤاد وإضافته إلى ضميره ﷺ:

لَمَّا كان الفؤادُ بهذا التعبير من أَلطف الأعضاء، وأرقِّها في البدن، وأنَّه يتألَّم ويتأثَّر بأدنى شيء وأقلَّ أَذًى⁽¹⁾؛ عبَّر به مضافًا إلى ضميره ﷺ: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ﴾ **فُؤَادَكَ**^ط، أي: لنُقوِّي قلبَكَ، فمهما ضَعُفَتْ أدركت أنَّ الله تعالى معك؛ "لأنَّه كلُّما نُزِّلَ عليه شيءٌ من القرآن ازدادَ طمأنينةً وثباتًا، وخصوصًا عند ورود أسباب القلق"⁽²⁾.

بلغة العدول من خطابهم إلى خطاب الرسول:

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ﴾ **فُؤَادَكَ**^ط تحوُّلٌ من خطابهم إلى خطاب الرسول ﷺ؛ لإعلامه بحكمة تنزيل القرآن الكريم على فتراتٍ مُتفرِّقة، وتطمينًا لقلبه، وتثبيتًا لإيمانه، وتيسيرًا عليه، وهو من باب الإنعام والامتنان⁽³⁾.

دلالة جملة التثبيت والحكمة منها:

لجملة ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ﴾ **فُؤَادَكَ**^ط دلالةٌ بالغة، وحكمةٌ عظيمة، وهي تثبيت فؤادِ النَّبِيِّ ﷺ، وعِبَرٌ أُخرى؛ منها: أنَّ يُقوِّي بتفريقه فؤادَ الرسول ﷺ حتَّى يفهمه، ويسهلَ عليه حفظه؛ لأنَّه إن كان سماعه بالتفريق، كان أسهلَ حفظًا من كونه جملةً واحدة، لا سيَّما إن كان الكلامُ على عدَّة أنواع وأجناس⁽⁴⁾.

تثبيت فؤادِ
النَّبِيِّ غاية نزولِ
القرآن الكريم
مُفَرَّقًا

تثبيت القلبِ
الرَّقِيق بالقرآن
الكريم، إظهارُ
لرحمة الله
وعظَمَةِ كلامه

إعلامٌ بحكمته
تعالى، وتثبيتُ
لقلب نبيِّه،
وامتنانٌ عليه

تنزيلُ القرآن
الكريم على
أزمان مُتفرِّقةٍ
حكمةً إلهيةً،
تُعزِّزُ الفهم
وتثبَّتُ الإيمانَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 247/22.

(2) السَّعْدِيُّ، تيسير الكريم الزَّحْمَن، ص: 582.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/19.

(4) اللاتريدي، تأويلات أهل السَّنة: 24/8.

ومن تلك العبر أيضًا أن تنزيله على تلك الهيئة وتحديهم أن يأتوا بمثل تلك التفاريق حال نزولها، هو أولج في الإعجاز، وأبين للحجة من نزوله كاملاً؛ فإنهم ما استطاعوا أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، فكان من عجزهم ما كان، فلاذوا بالمناسبة، وفزعوا إلى المحاربة، وقرع السنان على قول اللسان⁽¹⁾.

وفي التنزيل منجماً فوائد جمّة غير ما ذكر، منه: الإغاثة بتردد الرسل بين الله وبين رسوله، وتخفيف الأحكام على المسلمين بأن تكون متدرّجة، وورد الناسخ والمنسوخ، وهو ما يتنافى مع نزوله جملة واحدة⁽²⁾.

والتنزيل المنجّم يُظهر مطابقة الآيات لمقتضى الحال، ومناسبتها للمقام في كثير من آياته، وهو من تمام الإعجاز وكمالهِ، فضلاً عن سهولة الفهم، ومضاعفة التدبّر⁽³⁾.

ويجوز أن يكون إنزاله على تلك الصورة تعريضاً بالمنكرين، أي: أنّه يُظهر ضعفهم وعجزهم عن الإتيان بمثله، بأن يحضروا سورة واحدة من سوره، أو نجماً فرداً من نجومه، أو آيات من آياته، إذ كانوا يعتقدون أن نزوله مفرقاً دليلاً على ضعفه، وهو غاية التّبكيث لهم، وإزاحة الشكوك التي تحيط بإعجازه⁽⁴⁾.

معنى الواو في قوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾ عاطفة على قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾، أي: أنزلناه منجماً ورتلناه⁽⁵⁾، وفيه إشارة إلى أن الترتيل هو صفة ملازمة، وأنّه لا ينفك عنه أبداً، فكما أنزل منجماً؛ فقد تمّ ترتيله بشكل مُحكَمٍ دقيق، يُظهر إعجازه وبلاغته.

ترتيل يُضفي
على الإنزال
رونقاً وإعجازاً

(1) الزمخشري، الكشاف: 3 / 278.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13 / 379.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19 / 20.

(4) الزمخشري، الكشاف: 1 / 97.

(5) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 255، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19 / 20.

دلالة التعبير بـ ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾، مادةً وصيغةً:

قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾ من الفعل (رَتَلَ) زِنَة (فَعَلَ) الدَّالُّ على المبالغة⁽¹⁾، وهو وصفٌ لحُسْنِ التَّأْلِيفِ في الكلام، ووضوح الدلالة فيه⁽²⁾، فكلَّماتُ القرآن مُرتَّبةٌ بِشَكْلِ مُحْكَمٍ دَقِيقٍ، يُضْفِي عَلَيْهَا جَمَالًا وروعةً، ولترتيل القرآن معنى آخر هو التفريق؛ فقد فَرَّقَهُ الْحَقُّ سبحانه إنزالاً في نِيفٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً، فَالْتَرْتِيلُ تعبيرٌ عن الحالة التي عليها القرآن عند نزوله متفرقاً في ألفاظه ومعانيه، غير مُتراكمٍ، ينزل شيئاً فشيئاً، حَتَّى إِذَا كَمَلَتْ سُورَةٌ أَلْفَيْتَهَا كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ واحدة، فَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَاطِبُ الْبَشَرَ مُؤَكِّدًا لَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ليس من كلام البشر، بل هو من عنده ﷻ، وذلك لأنَّ كلام البشر إذا تمَّ تأليفه على أزمنة متباعدة، فَإِنَّهُ يَصْبِحُ مُفَكِّكًا وَغَيْرَ مُتَنَاسِقٍ⁽³⁾.

سِرُّ إِضَافَةِ التَّرْتِيلِ إِلَى الضَّمِيرِ الْعَظَمَةِ:

أُضِيفَ فِعْلُ التَّرْتِيلِ إِلَى الضَّمِيرِ الْعَائِدِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾؛ لِلإِشَارَةِ إِلَى عَظَمَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأَهْمِيَّتِهِ فِي حَيَاةِ الْمُؤْمِنِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ وَقَدَّرَ تَنْزِيلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُرْتَّلًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

سِرُّ تَقْيِيدِ الْفِعْلِ بـ ﴿تَرْتِيلًا﴾، مع تنكيره:

المفعول المطلق في قوله تعالى: ﴿تَرْتِيلًا﴾ وإن كان مفرداً لفظاً، فَإِنَّهُ لَتَبْيِينُ النُّوعِ؛ لِأَنَّهُ عَلَى مَعْنَى التَّعْظِيمِ بِمَدَاعَاةِ تَنْكِيرِهِ⁽⁴⁾، وَالْمَعْنَى: كَذَلِكَ نَزَّلْنَاهُ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا بَدِيعًا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ⁽⁵⁾، وَهَذَا مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَإِعْجَازِهِ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَصْدَرُ الْمَنْصُوبُ ﴿تَرْتِيلًا﴾ مُؤَكِّدًا

كلامٌ مُرْتَّلٌ
منسَّقٌ، حَسَنٌ
التَّأْلِيفِ، بَيِّنٌ
الدَّلَالَةِ

عَظَمَةُ الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ،
وَأَهْمِيَّتُهُ فِي حَيَاةِ
الْمُؤْمِنِ

التَّعْظِيمُ
والتَّفْخِيمُ لِنَزُولِ
الْقُرْآنِ مُرْتَّلًا

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 72 / 1.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20 / 19.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20 / 19.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20 / 19.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 216 / 6.

لفعل الترتيل، والترتيل هو قراءة القرآن الكريم على نسقٍ مُصَوَّرٍ للمعاني الجليلة في التلاوة، وهو ليس مُجَرَّدَ قراءةٍ، بل هو منهجٌ متَّبَعٌ في قراءة القرآن الكريم في زمن النَّبِيِّ ﷺ، وأنه قد انتقل منه إلى الصَّحابة، ثم إلى التَّابعين، حتَّى وصل إلينا متواتراً، فالقرآن الكريم ليس متواتراً بلفظه حسب، بل بلفظه وترتيبه⁽¹⁾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفؤاد والقلب:

الفؤادُ مستقرُّ
الإيمان وتنبئته
طريقُ النِّجاةِ

الفؤادُ: هو باطنُ القلب، ومكمنُ المشاعر والأحاسيس، ومستقرُّ الإيمان، أمَّا القلب: فيُشير إلى العُضْوِ العُضْلِيِّ في صدر الإنسان، وهو اسمٌ للجراحة، وسُمِّيَ بذلك لأنَّه وُضِعَ في موضعه من الجوف مقلوباً⁽²⁾. فاختيارُ لفظِ الفؤاد في قوله تعالى: ﴿لِنُنَبِّئَكَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بدلاً من القلب، يُضفي على الآية الكريمة نعمةً مؤثِّرةً؛ فالتَّشْبِيهُ المقصود في الآية الكريمة هو تشبُّهُ مشاعر النَّبِيِّ ﷺ وأحاسيسه، وإعطائه القوَّة والثَّبات في إيمانه.

الترتيل والقراءة:

تأدوة بتأنٍ
وتعليم بترو
هدي القرآن في
نُزوله مفرِّقا

الترتيل: من الرَّتَل، وهو اتِّساقُ الشَّيء وانتظامه على استقامة، ورتلتُ الكلامَ ترتيلاً، أي: تمهلْتُ فيه وأَحَسَّنْتُ تَأْلِيفَه، وهو يترتَّل في كلامه ويترسَّل، والترتيل: إرسالُ الكلمة من الفم بسهولة واستقامة، وهو في القرآن: التَّرسُّلُ فيه، والتَّبيينُ بغيرِ بغي⁽³⁾، فمعنى ترتيل القرآن: قراءته بتأنٍ وتروٍّ وتفهم، مع مراعاة أحكام التَّجويد.

وأما القراءة: فهي ضمُّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، ويدلُّ ذلك على أنَّه لا يُقال للحرف الواحد إذا تفوّه

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5276 / 10.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 433.

(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والزَّاجِب، المفردات:

(رتل).

به قراءة، وقرأت الشيءُ قرآنًا: جمعته وضممتُ بعضه إلى بعض، وقرأتُ الكتابَ قراءةً وقرآنًا، ومنه سُمي القرآن؛ لأنه يجمع السُّورَ فيضمُّها⁽¹⁾.

فإيرادُ فعلِ الترتيل هنا مناسبٌ أيما مناسبة؛ لسياقِ ما نزلت فيه الآية، فإنها نازلةٌ في أن هذا القرآن قد نزل مُفرَّقًا على مهلٍ لحكم ربانيَّةٍ كثيرةٍ، أي: أنزلنا عليك القرآنَ الكريمَ مُفرَّقًا على مُدَّةٍ من الزمن، لكي تتأملَ في آياته، وتتفهَّمَ معانيه، وتعلِّمه للنَّاس.

(1) الجوهري، الصحاح، والزَّاغِب، للفردات: (قرأ).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفرقان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفرقان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 37، 812 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-732-79-2

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 37: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفرقان الآية 42.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ-العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-732-79-2

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»